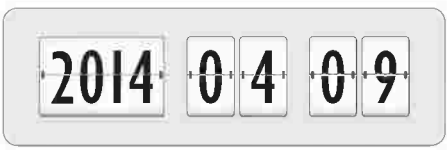

تابعت هيلاري كلامها قائلة: ما لبثت الاحتجاجات المصرية أن أصبحت أزمة السياسة الخارجية الأكثر حساسية بالنسبة إلى إدارة أوباما، وضاعف الرئيس من تعويله علي التماسًا للمشورة؛ كنت قد عرفت الرئيس مبارك منذ عشرين سنة كما كنت قد نسجت علاقة حميمة مع سيدة مصر الأولى سوزان مبارك بدعم نشاطها في مجال حقوق الإنسان.

حين رد مبارك بعنف على الاحتجاجات أوائل شباط/فبراير، بادرت إلى شجب مثل هذه الإجراءات ولاسيما تلك التي طالت الإعلاميين الذين كانوا يغطون الأحداث شجبًا قويًّا، وطالبت نائب الرئيس المصري عمر سليمان بإلحاح بإجراء تحقيقات رسمية لمحاسبة المسؤولين عن الانتفاضة.

حين أعلن فرانك فسنر؛ موفد الرئيس أوباما إلى مصر، صراحة أن رحيل مبارك يجب تأجيله لاستيعاب انتقال منتظم إلى حكومة أخرى، سارعت إلى توبيخه، رغم إحساسي بالشعور ذاته على نحو ما، يجب أن أعترف. أخيرًا تخلى مبارك عن الحكم في الحادي عشر من شباط/فبراير فيما تطورت مظاهرات الاحتجاج لتصبح ثورة 2011م المصرية، أبلغت المصريين أن الولايات المتحدة متفهمة أن أمام بلدهم عملًا كثيرًا وأوقاتًا عصيبة في المستقبل. منتصف

آذار/مارس زرت مصر ووعدت بدعم تحرك مصر نحو الديمقراطية، ولكنني حرصت على تجنب تقديم أي تعهدات ملموسة ومحددة بمعونة أمريكية.

لم يكن الرئيس أوباما راضيًا عن أجهزة الاستخبارات الأمريكية لإخفاقها في التكهن بالانتفاضة التونسية وسقوط زين العابدين بن علي كما بالاحتجاجات المصرية في عامي 2010م و 2011م، وردًّا على انتقاد أن وزارة الخارجية كانت قد أخفقت في توقع التطورات الحاصلة في مصر، دافعتُ عن الولايات المتحدة في مقابلة مع العربية، ثم حاولت تهدئة الخواطر المنفعلة قائلة: «لا أظن أن أي شخص كان يستطيع أن يتنبأ حين جرى هذا كله، بأننا سنكون جالسين هناك معًا ونحن نتحدث عن نهاية رئاسة مبارك».

متأملة لا الوضع في تونس ومصر فحسب، بل واحتجاجات 2011م اليمنية، واحتجاجات 2011م الأردنية، قلت في اجتماع رباعية الشرق الأوسط في شباط/فبراير إن وضع الأمر الواقع لم يكن مقنعًا، أضفت إن الانتخابات الحرة يجب أن تكون مشفوعة بحرية التعبير، وبقضاء حر، وبسيادة القانون كي تكون فاعلة، رغم احتمال ابتلاء عملية الانتقال إلى الديمقراطية بالفوضى، فالشعب الحر هو أفضل من يحكم نفسه آخر المطاف.

نظرت هيلاري إلي وقالت: هل تدوخين من هذه المعلومات كلها يا دكتورة؟ أعرف أنها ليست ممتعة دائمًا بالنسبة إلى غير السياسيين.

أربكني سؤال هيلاري قليلًا، أنا راسخة الإيمان بوجوب الصدق مع المرضى كما مع الجميع كلما كان ذلك ممكنًا، غير أنني لم أرغب في إحباط هيلاري وجعلها تعزف عن البوح بما يدور في خلدها، تذكرت حوارًا كان لي منذ زمن بعيد مع مدربي المحلل الدكتور تيودور رايك، حين قلت له إنني مللت من قصة طويلة كان أحد المرضى يرويها لي، قال لي: «الملل هو الثمن الذي عليك أن تدفعيه بانتظار ظهور المادة الدسمة على السطح».

آخذة تعليق الدكتور رايك في الحسبان، قلت: بالطبع أنا لست دائخة يا هيلاري، على الدوام أريد سماع ما تفكرين به. كذبة بيضاء صغيرة! نعم، ضرورية! نعم أيضًا، على الرغم من أنني- علي أن أعترف- فوجئت بأن هيلاري بكل ما لديها من مهارات تحري واستقصاء استثنائية، لم تكن قد اكتشفت خدعتي، أو ربما كانت قد فعلت ولكنها قررت تجاهل الأمر. لا يستطيع المرء أبدًا أن يكون متأكدًا مع هيلاري كلنتون.

استأنفتْ كلامها قائلة: بدأت حرب عام 2011م الأهلية الليبية منتصف شباط/فبراير، ثم ما لبثت أن تكثفت لتغدو صراعًا مسلحًا، حين سجل المتمردون بعض النجاحات العسكرية أوائل آذار/مارس، عبرت عن رأيي للرئيس أوباما حول وجوب رحيل القذافي من دون مزيد من التأخير، ومع مبادرة القذافي إلى خوض هجمات مقابلة ضد المتمردين، ترددت في البداية (كما كان أوباما قد فعل) حول فرض منطقة حظر طيران ليبية، ومع تزايد احتمالات انتصار القذافي وحصول حمام دم، سافرت إلى أوروبا وشمال إفريقيا، ووجدت أن تأييد التدخل العسكري بات متزايدًا لدى القادة الأوروبيين والعرب، فغيرت رأيي وشجعت الرئيس على دعم تحرك الأمم المتحدة لفرض منطقة حظر جوي والتفويض بتحركات عسكرية ضرورية أخرى.

وافق مجلس الأمن الدولي على منطقة حظر جوي في آذار/مارس، وتضمن القرار بنودًا حول المزيد من التحركات للحيلولة دون تعرض الأهداف المدنية للهجوم، أسهمت في كسب الدعم المالي والسياسي للعديد من البلدان العربية، ولاسيما في إقناع قطر، والإمارات العربية المتحدة، والأردن، بأن من شأن منطقة الحظر الجوي ألا تكون كافية، وبأن هجمات جوية أرضية ستكون ضرورية. أما فيما يخص وجوب قيام الولايات المتحدة بإرسال أسلحة إلى القوات المعادية للقذافي، فقد قلت إن من شأن هذا أن يكون مسموحًا به بموجب القرار، غير أن قرارًا يقضي بفعل ذلك لم يتخذ بعد.